محاضرة

الامـــة والـــوطـــن
في الفكر الاسلامي والمسيحي
فـي الـعـصـور الـوسـطـى

د. اولـريـش هـارمـان

الجمعية الفلسطينية الاكاديمية للشؤون الدولية القدس الشريف

محاضرة

الامـــة والـــوطـــن
في الفكر الاسلامي والمسيحي
فـي الـعـصـور الـوسـطـى

د. اولـريـش هـــارمـــان

الجمعية الفلسطينية الاكاديمية للشؤون الدولية القدس الشريف

الجمعية الفلسطينية الاكاديمية للشؤون الدولية، مؤسسة فلسطينية مستقلة، لا تسعى للربح او التجارة وغير مرتبطة بأية جهة حكومية او حزبية او تنظيمية، وتهدف اجراء بحوث ودراسات وندوات متخصصة في المسألة الفلسطينية وعلاقاتها الاقليمية والدولية والاسهام في توظيف هذه الدراسات للتعريف بعناصر المسألة الفلسطينية في الساحة الدولية.

ان ما ورد في هذه الورقة من اراء وافكار تعبر عن وجهة نظر الكاتب الشخصية ولا تعكس او تمثل بالضرورة موقف او رأي الجمعية الفلسطينية الاكاديمية للشؤون الدولية، او العاملين فيها، وقد قدم المستشرق الاستاذ الدكتور اورليش هارمان مدير المعهد الالماني للابحاث الشرقية سابقا واستاذ الدراسات العربية في جامعة فرايبورغ بالمانيا الغربية هذه الورقة كمحاضرة باللغة العربية بتاريخ ٢ اذار ١٩٨٩ في مقر الجمعية بالقدس وذلك ضمن برنامج التعاون الثقافي بين الجمعية ومعهد غوته الثقافي الالماني الغربي.

جميع الحقوق محفوظة للجمعية

نيسان ١٩٨٩

(الطبعة الاولى)

Ulrich Haarmann

The Nation and Homeland in the Islamic and Christian Thoughts in the Middle Ages

PASSIA Publication

First Edition

September 1989

P.O. Box 19545

Jerusalem

لا تكاد توجد في الارض دولة تلعب فيها القومية دورا اقل منه في جمهورية المانيا الاتحادية.

هل هناك مكان ليس فيه عيد وطني؟ هل هناك مكان يجهد فيه المرء نفسه في البحث عن الاعلام الوطنية في الشوارع؟ الاسباب لهذا الرأي العام المضاد للقومية معروفة.

ان السياسة التي اتبعها ادولف هتلر الى اقصى حد (والتي جعلت الامة ومصالحها الموهومة هي القيمة العليا) قد كلفت الالمان ثمنا باهظا: اثنا عشر مليون قتيل، ثلث الاقليم الوطني، تقسيم بقية الدولة الى شقين، الادانة الدولية، واخيرا كنتيجة للحرب العالمية الثانية، الموقع الخطير جدا على خط التماس بين المعسكرين الشرقي والغربي.

ان ريبة الالمان تجاه قيمة امتهم لم تغفل ايضا العصور الوسطى. وقد سبق في عام ١٩٥٩ ان رفض رئيس الجمهورية وهو (تيودور هويس) بشدة الفكرة التي كانت ترمي الى الاحتفال بانتصار القبائل الجرمانية على طلائع المحتلين الرومان في سنة ٩ بعد الميلاد.

وكان معنى ذلك شبيها بأن يرفض احد الساسة العرب البارزين حضور احتفال بمناسبة ذكرى انتصار الجيوش الاسلامية في معركة اليرموك او نهاوند.

وفي عام ١٩٦٢، اي بعد ذلك بثلاث سنوات، حلت الذكرى الالف لتتويج الامبراطور هوتو الاول الذي جلب الامبراطورية الرومانية الى المانيا، وبهذا استكمل بناء الدولة الالمانية المهيمنة على غرب اوروبا في مطلع العصور الوسطى. وكذلك فان هذه الذكرى لم يلفت النظر اليها.

ومعنى ذلك شبيه بأن تنسخ من ذاكرة العرب القومية ذكرى تأسيس بغداد او القاهرة.

تنتج من هذه المقارنة ملاحظتان. ان فكرة القومية في اوروبا (وخاصة في المانيا) هي في حالة الانحطاط والانحدار. ولكن ذلك يختلف تماما في العالم العربي والعالم الثالث. هنا نجد ان فكرة الدولة

القومية بتاريخها الخاص تستخدم كهمزة وصل بين مكونات الامة المتغايرة ومجتمعات غير متناسقة. والسبب لهذا التشجيع هو الدولة بعينها. وفي سياق هذا ينسون بالطبع ان فكرة القومية هي ابتكار قومي محض. وانها خليط من المخلفات الفكرية لكل من الثورة الفرنسية (بما فيها الارادة العامة والقومية القائمة على الدولة) والمذهب المثالي الالماني الذي ينادي بالامة الواحدة على اسس الشعب الواحد واللغة الواحدة.

العالم العربي والعالم الاسلامي بصورة عامة سار في اتجاه النوع الثاني من القومية الاوروبية. لقد أخذ ساطع الحصري عن الفيلسوف المثالي الالماني فيشته (Fichte) نموذج الامة القائمة على لغة مشتركة. كما كانت المانيا قبل بسمارك منقسمة الى دويلات مستقلة وجدت في اللغة والثقافة والتاريخ المشترك عاملا موحدا، كذلك ظهرت اللغة العربية والتراث التاريخي للقوميين العرب البارزين في قرننا كضمان لعودة دولة عربية موحدة كما كانت في العصور الوسطى.

ولكن هذه الرؤية التاريخية -هذا اقوله للتكرار هنا- التي تعتبر الدولة الاموية او الدولة الفاطمية دولة قومية في العصور الوسطى، ما هي الا فكرة غربية حديثة تنبىء عن مبادىء فكرية نشأت في نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر فقط، تحت الظروف الخاصة التي سادت اوروبا في عصر التنوير والعلمنة. ولكنها تنفي خصائص نظام العصور الوسطى السياسي في الشرق الاسلامي الذي تتضاءل فيه حتى تغيب كل المزايا الخاصة (مثل اللغة والجنس والنسب) وراء العروة الوثقى الدينية وهي التآلف الاسلامي.

وهذا يقودني الى الملاحظة الثانية: لم تكن الحال في اوروبا مختلفة عن ذلك. ان الريبة التي طرأت (على الاقل في المانيا بعد الحرب الكونية الثانية) على وجهات النظر المبنية على استمرارية الدولة القومية منذ اوائل العصور الوسطى مرورا بحركة اصلاح الكنيسة في اوروبا وبعصر التنوير - ان لهذه الريبة اسبابا خطيرة.

في اوروبا في العصر الوسيط لم توجد امم بالمعنى الحديث ايضا.

وحتى هنا سيطرت ايضا جماعة المؤمنين على كل شيء اخر واجبرته على السير خلفها.

لقد وجدت امم -باللغة اللاتينية Nationes- ولكن هذه الامم لم تترك للامم الحديثة شيئا اخر ما عدا التسمية -أي كلمة Natio- واطارا تاريخيا بان نظام الامم الحديثة العلمانية يتنافى مع حكم الدين كما ساد في الشرق والغرب طيلة العصور الوسطى.

نحن لا تهمنا اليوم هنا الامم الحديثة العلمانية وغير العلمانية، وكذلك لا يهمنا انتقال اصطلاح (Natio) أي امة من الغرب الى الشرق الاسلامي. يهمنا هنا ظاهرة تبلور الشعور اللغوي والعنصري عند الشعوب المختلفة في العصور الوسطى، تحت شعار الدين المشترك.

وفي صدر الحديث هنا نجد اصطلاح (Natio) و (Patria) على الجانب الاوروبي الغربي واصطلاح (وطن) و (امة) على الجانب الاسلامي.

ان حاجة اعضاء جماعات بشرية ذات خصوصية بها الى فصل نفسها عن الغرباء لشيء بديهي. ولكن كيف يمكن التنسيق بين هذا وبين الواجب الديني المثالي القاضي بمعاملة اخوية متواضعة للمؤمن بغض النظر عن اللغة او الجنس؟ والسؤال المطروح: هل كانت هناك بالنظر للمتوازيات العامة بين نظام المجتمع الاسلامي والمسيحي في العصور الوسطى اختلافات ذات اهمية، وكيف يمكن ان نشرح هذا؟

ولنبدأ بالغرب: ولنبدأ بالكلمتين اللتين ظلتا متداولتين حتى اليوم بشكل ملموس في ثورة السياسيين اللغوية وهما الامة (Natio) والوطن (Patria). طبقا لشعورنا اللغوي الحديث فانهما تشكلان تعارضا فيما بينهما. ان اصطلاح الوطنية Patriotisme ينم عن شعور ايجابي مقبول، لكن اصطلاح القومية يحمل في طياته جواب او تصورات سلبية. كما يقول المؤرخ الفلسفي يان هويزنغا Jan Huizinga:

> "ان القومية هي الدافع القوي الى الحكم، هو النزوع
> الى جعل كلمة الشعب الخاص او الدولة الخاصة

مطاعة وسائدة على شعوب او دول اخرى".

ان هذا التعارض الاصطلاحي الشديد حديث، ولم يتسم بهذه الشدة الا خلال مسار تاريخي طويل.

اولا، حول اصطلاح Patria فان كلمتي Patris اليونانية و Patria اللاتينية القريبة منها تعنيان بالنص "موطن الاب" وهو المكان الذي يكون فيه الانسان بين ذويه. واكاد اعتقد انه لا يشعر بالـ Patria الا من هو بعيد عنها. فيحن الى هذا الوطن الملاح والمحارب في الاقاليم البعيدة، في الالياذة وفي اغنية رولاند وفي شعر الصليبيين، في العصور القديمة وفي العصور الوسطى. وان النعت الذي لا ينفصل عن Patria هي صفة "حلو". ان الحنين الى الوطن جبلة انسانية. وقيد هذا الشعور الفطري دعاة الحروب الصليبية لكن بصعوبة.

الى جانب هذا المعنى العاطفي استجد في العصور الوسطى معنى اداري قانوني جانبي. الـ Patria كانت هي الاقليم الذي ينتمي اليه الانسان، المجال القضائي مثل الدائرة او الولاية او الـ Comitas. نحن نلاحظ هنا المبادىء الاولية للاصطلاح الاوروبي الغربي الحديث للامة والذي يعني مركزه الولاء للدولة كمعطاة سياسية وارضية.

ويرادف الاصطلاح الاوروبي (Patria) في العصور الوسطى، الاصطلاح العربي (وطن) بجميع جوانبه المختلفة. وطن او موطن، مكان الولادة والاقامة للانسان. ان الولاء للوطن شيء طبيعي. وكل انسان يحمل هذا الولاء في نفسه.

طبقا للجاحظ فان البيئة (اي الوطن) تطبع الانسان بطابعها. الحنين الى الاوطان -وعلى سبيل التذكير فهذا عنوان لرسالة له مشهورة- يصاب به خصوصا البدو الرحل. وعن الترك يقول الجاحظ انهم "احن من الابل المعقلة الى اوطانها". وفي مكان اخر يعمم هذه الفكرة قائلا "ارض الرجل ظئره وداره مهده" ويقول على لسان فيلسوف لم يذكر اسمه: يتحدث "فطرة الرجل معجونة بحب الوطن". ويقول ايضا: اذا كان الطائر يحن الى اوكاره فالانسان احق بالحنين الى اوطانه".

وحسب علمي، لم تنجز اوروبا الغربية في العصور الوسطى أية دراسة نقدية شاملة لظاهرة الشعور بالوطن يمكن ان تقارن بدراسة الجاحظ العميقة.

وينسب الى النبي محمد قوله في حديث "حب الوطن من الايمان". وعندما شاعت فكرة الوطنية المجلوبة من فرنسا في الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر (حيث نقلت من هناك الى الاقاليم العربية) اصبح هذا الحديث شعارا سياسيا وصحفيا للحركة الوطنية العثمانية. وان العدد الاول من مجلة الاحرار العثمانيين المسماة "حرية" حمل العنوان "حب الوطن من الايمان". هذا، واعتقد ان بحثا موسعا لتاريخ مصطلح الوطن وانتشاره في العالم الاسلامي يبدو شيئا مرغوبا فيه.

ان مثل هذه الدراسة ستكون بالطبع صعبة، فكيف نميز بين استخدام اصطلاح الحنين الى الوطن كعبارة شائعة بها مكررة ونمطية دون افادة ملموسة، وبين استخدامه لوصف شعور الحنين الحقيقي والحي والفريد من نوعه؟

وكما ربط الرومان بين اصطلاح Patria وبين مزايا معلومة للبلاد، كذلك نسب العرب الى الوطن فضائل معينة، والى وطن العدو بالتالي رذائل معينة. فان كتب الفضائل ورسائل المناظرة تذكر مزايا الاراضي الوطنية، أي عجائبها وحسناتها الجغرافية والطبيعية والحوادث الحاسمة في تاريخها الاسلامي. ولكن المعطيات التاريخية المفصلة نادرة جدا في مثل هذه الكتب. لكن مجرد وجودها يبرهن على الشعور العام بالانتماء الجغرافي لمكان معين وللوعي بجاذبية هذا الوطن.

وفي مصر يبدو ان هذا الشعور بالوطن كان متطورا بشكل ظاهر. ان المصريين -سواء من الخواص والعوام- دافعوا عن عجائب بلادهم العزيزة مثل الاهرام وابي الهول، ضد قبضات الزهاد المتعصبين المتحمسين الذين اعتزموا تخريبها لكونها رموزا للوثنية. ان فكرة الشخصية المصرية القائمة على عوامل الجغرافيا المصرية ليست من

اختراع ما تسمى الحركة الفرعونية في قرننا هذا. اضافة الى ذلك اثبتت ابحاث عن كتب الطبقات والتراجم، ان تعلق المصريين بارضهم كان يوازي عدم استعدادهم للسفر ولمغادرة بلادهم، حتى لطلب العلم بالمقارنة مع شعوب اخرى. وسوف اعود لمناقشة هذه الفكرة العامة مرة اخرى.

وبجانب الحنين الى الوطن -الذي ترادفه العبارة اللاتينية Amor Soli Naturalis (الحب للأرض الطبيعية)- نعثر على شعور اخر لا يقل عنها في طبيعيته وانسانيته، وقد تحدثنا عنه منذ لحظات. وهو ان حسنات شخص او حسنات جماعته تبدو اكثر سطوعا، عندما تبرز قبائح الاخرين وسيئاتهم، وبخاصة للجار القريب المهدد. نصطدم الان بشعور الانتماء الى جماعة عنصرية معينة: فان الانسان يشعر بانسجام مع الذي يتحدث لغته وله نفس العادات والتقاليد. ان طرد الغريب من الدوائر الخاصة والحط من شأنه هو للأسف عادة شائعة في المجتمعات الانسانية. ان فئة ال "نحن" تواجه فئة ال "هم" وتفوقها. وجماعة الاخرين هذه تنعت في الغالب بصفات سلبية. وان من يمارس انفتاحا كثيرا على الغرباء يضع نفسه موضع الشك في الجماعة التي ينتمي اليها. والفرنسيون لا يزالون يتحدثون حتى اليوم عن "حزب الاجانب". Parti de L'etranger .

وفي بحث عن العلاقة بين العرب والاتراك حاولت ان اتعمق في الغرب اللاتيني في العصور الوسطى فتكشف لي تشابها مدهشا، مثلا بين وحشية الاتراك تجاه العرب ووحشية الالمان تجاه شعوب غرب اوروبا، وقد أطلقوا على العنف الالماني Furor teutonicus وهذه العبارة ترجع الى القرن الاول بعد الميلاد.

وان صفات الاخرين العامة والنمطية، كان ينظر اليها في كل من الشرق الاسلامي والغرب المسيحي على انها خصائص عريقة متأصلة. وعلى سبيل المثال يتحدث المؤرخ ايكهارت فون اورا (Ekkehard von Aura) في عهد الصليبيين متقصيا عن البغض الطبيعي الشائع بين الشعبين الالماني والفرنسي Invidia quae inter utrosque

.naturaliter versatur

وعلى الجانب الاسلامي فان قائمة الصفات المتداولة السلبية ليست اقصر، ونذكر منها على سبيل المثال خبث الفرس وكسل الزنج.

وعلى الرغم من ذلك فان هناك اختلافات هامة بين الشرق والغرب. بلور الاسلام نظرية متطورة عن خصائص الشعوب المختلفة، ومنها فكرة التوازن والاعتدال كما يقول ابو حيان التوحيدي في كتابه الامتاع والمؤانسة: "فلكل امة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسَن ومساوىء ... وهذا يقضي بان الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مفاضة على جميع الخلق، مفضوضة بين كلهم".

وهو يستطرد قائلا "ان هذه الفضائل المذكورة، في هذه الامم المشهورة، ليست لكل واحد من افرادها، بل هي الشائعة بينها ثم من جملتها من هو عار من جميعها وموسوم باضدادها، يعني انه لا تخلو الفرس من جاهل بالسياسة، خال من الادب، داخل في الرعاع والهمج وكذلك العرب لا تخلو من جبان جاهل طياش بخيل عيي...."

ووجهة النظر هذه شيء نادر في المؤلفات الغربية المماثلة، على الاقل في العصور الوسطى. فلنقارن ما كتب ابو حيان بالقائمة الساذجة التي جمعها جاكوب دي فيتري (Jacques de Vitry) عن صفات الشعوب الشائعة في عصره.

ولكن هناك فرقا ثانيا. في الغرب كان صراع الشعوب (عن طريق التشابهات المعيبة والحاطة من الغير) بديهيا ومعكوسا، لان الشعوب كانت متساوية مبدئيا، وفي الواقع ليس لاي شعب موقف مفضل.

ان ادعاء الالمان بحقهم في الامبراطورية لم يقبل دون معارضة. وفي الحقيقة ان المانيا اصبحت خلف فرنسا وانكلترا بعد وفاة فريدريك الثاني وسقوط الدولة الشتاوفية في القرن الثالث عشر. لقد حل محلهم حكام جدد. وتناوبت الشعوب على القيادة السياسية والجاه الاعلى في الغرب المسيحي.

عند هذه النقطة يبدو الاختلاف الى الاسلام واضحا. ثمة في العالم الاسلامي شعب فضله الله على جميع الشعوب الاخرى وهو العرب. كما

يقول الثعالبي في مقدمة كتابه فقه اللغة "اعتقد ان محمدا عليه السلام خير الرسل، والاسلام خير الملل، والعرب خير الامم، والعربية خير اللغات". ان العربية كلام الله في القران، والقران العربي معجزة محمد، خير الورى وخاتم الانبياء. ان الوعي بالانتماء الى الشعب الذي انزل الله قرانه بلغته لجميع الناس، اضفى على العرب ميزة فريدة ليس لها نظير، وليست النبوة محصورة في العرب فحسب، بل الخلافة ايضا.

وبالطبع كانت هناك محاولات لرد الهجوم، ولتقبيح العرب لصالح شعوب اسلامية اخرى. فلنذكر حركة الشعوبية. ان الفرس اعتبروا انفسهم سماة العرب، اكلة الجراد وحملة العصا كما قالوا، واعتزوا بثقافتهم العريقة. وللفرس افضال على الاسلام، اليسوا من نسل اسحق ذبيح الله كما نقرأ في بعض المصادر؟ وظهر النبي محمد في عهد ملكهم العظيم، العادل والحكيم، خسرو انوشروان من ال ساسان!

على ان شعوبا اسلامية اخرى حاولت ان تدل على اسلامها وتوحيدها العريق. تفاخر المصريون بعزيز مصر الذي ورد ذكره في قصص الانبياء على انه قبل رسالة موسى ضد مناوأة فرعون. واشار الاكراد مثلا الى سليمان بأنه جدهم الاول. ووضعت اساطير حول النسب. فادعى كل من الفنج السودانيين ورضوان بيك الفقاري حاكم مصر في الفترة العثمانية، انهم من نسب قريش. ولكن الاتراك فحسب لم يشعروا بحاجة الى هذا الانتساب لانهم كانوا قابضين على زمام السلطة الفعلية. وكذلك نشأت في الغرب (كما هو معروف) مثل هذه الاساطير حول الانساب -اكتفي بذكر اينياس اللاجيء من تروبا الى روما او حتى بلد الفرنك الاول.

ولكن بماذا سميت هذه الجماعات الاثنية، هذه الشعوب؟ اطلق لفظ الامة على الاتراك والفرس والعرب ...الخ. ان لفظ الامة اذن لفظ مشترك، لانه يصف كلا من الاجناس وجماعة المؤمنين السامية على الفروقات العنصرية. يستخدم الجاحظ وابو حيان والثعالبي وابن حسول في رسالته المسماة بتفضيل الاتراك، لفظ الامة اطلاقا على

الاجناس. نجد ايضا كما سمعنا في كتاب الامتاع والمؤانسة اصطلاحات القوم والطائفة والجنس. ويبدو لي ان من الضروري ان تعقد دراسات مفصلة وتحليلية عن تاريخ هذه المسميات وعن تطورها في العصور الوسطى.

الاسم المقابل للامة في الغرب بمعنى جماعة اثنية هو باللاتيني Natio. والاصطلاح Natio قديم. لقد حفظ معناه الاصلي -كما يرد في الانجيل والادب اللاتيني القديم- حتى العصور الوسطى وهو: جماعة اللغة والعادات. ان كلمة Natio ترتكز على كلمتي Natus -أي مولود- و Natrua -أي طبيعة- لغويا ومعنويا. وخلافا لـ... Patria لم يكن لـ... Natio في العصور الوسطى في البداية اي معنى سياسي او اداري.

وذلك لان النظام الروماني، وهو منبع كل المؤسسات والاصطلاحات السياسية والقانونية الجارية في العصر الوسيط، لم يعرف التقسيم الى اجناس. في الدولة الرومانية كان الانسان مواطنا على مستوى الدولة او مواطنا على مستوى القرية او المدينة. فيما بين هذين الحدين لم يوجد ولاء ثالث. وهكذا مضى وقت طويل حتى ثبت وتوطد مفهوم الـ Natio المبهم في سياق العصور الوسطى بمكوناته الاساسية،

اولا : اللغة المشتركة،
ثانيا : الارض المشتركة،
ثالثا : الاصل والنسب المشترك.

والى جانب هذا بالطبع، فقد ظلت هناك جوانب في الـ Natio يكتنفها الغموض، وكذلك نشأت دائما ازمات عن الانتماء الى امة او امة اخرى. وهكذا شعر الساكسونيون او البيكارديون بانتمائهم وولائهم الاول للامة الساكسونية او البيكاردية، وليس للامبراطور الالماني او الملك الفرنسي. وكان صعبا على الفارس البورجوندي في العصور الوسطى المتأخرة مثلا ان يوفق بين بيعته للامبراطور الالماني وارتباطه باللغة والثقافة الفرنسية. على وجه الاجمال فان

الروابط التي تربط المرء بالامة لم تكن متينة، على الاقل بالمقارنة مع الدول القومية في العصر الحديث.

وفي مؤسسات ثلاث؛ نجد في العصور الوسطى الامة -تعني الـ Natio- كمبدأ رابط ازدادت اهميته شيئا فشيئا. وهي الجامعات والفنادق التجارية والمجامع الكنسية. وفي الجامعات، في ايطاليا وبريطانيا، وبخاصة في باريس، احتدم الخصام بين طلاب من اجناس مختلفة، على الرغم من ان التعليم -Studium- كان الركيزة الثالثة للنظام بجانب الدولة Imperium والكهنوت Sacerdotium الذي يعني البابوية.

ولم يكن الاسلام يعرف مثل هذا الصراع العنصري في المدارس بسبب دعوته القوية الى الغاء الفوارق بين جميع الاجناس.

والمؤسسة الثانية، كانت المراكز التجارية للشعوب المختلفة في الاراضي الاجنبية كما نجدها في مرافىء فلاندريا وحتى، كما تعرفون، في فلسطين ومصر.

وثالثا ظهرت الامم الـ Nationes ككتل مخصوصة في المجامع الكنائسية، استخدمها البابا الذي اوقع بينها لتعزيز منصبه على رأس النظام الديني والسياسي. وفي عام ١٤١٤، في مجمع الكنيسة في مدينة كونشتانس في جنوب المانيا، حدث نزاع شديد حول رتبة ممثلي الامم المجموعة.

أما في ما يخص علاقات الشعوب المسيحية المتبادلة فيجب علينا ان نفرق بشكل واضح. فقد كانت هناك كراهية خاصة ونضال خاص ضد الرافضين المرتدين عن الدين النقي. وخلافا للاسلام فان ذلك لم يكن واردا في المسيحية.

ولما استولى الفرنج على مدينة القسطنطينية سنة ١٢٠٤ فقد هللوا لهذا الفتح واعتبروه انتصارا اعظم من الاستيلاء على بيت المقدس في عام ١٠٩٩. وعندما وقفت القوات التركية امام القسطنطينية اعلن اخر امراء البحر البيزنطيين انه يرغب في رؤية قلنسوة البابا، رمز الهرطقة! وفي الجانب الاسلامي لم يكن الحال

مختلفا. في القرن السادس عشر، كفر المفتي العثماني السني القزلباش الشيعة المسيطرين على ايران وأفتى بان قتل رافضي واحد افضل من قتل اربعين او حتى مائة من الفرنج غير المؤمنين.

وفي المسيحية الغربية -اي بدون بيزنطة والكنيسة الشرقية- يجب علينا ان نفرق ما بين علاقات الاوروبيين الغربيين المتبادلة، وبين علاقاتهم مع اوروبا الشرقية. ان علاقة الالمان مع الفرنسيين مثلا، كانت قبل عهد الشتاوفيين متسمة بطابع نفور سببه التجاوز، ولكن ليس بطابع العداوة المستحكمة. ان شعور التضامن بين الشعبين منذ ايام شارل الاكبر وخلفائه من اسرته قد اثر لمدة طويلة. نقرأ في سيرة القديس جوار Goar من القرن الثامن بعد الميلاد الحكاية المشهورة بان نبيلا من قبيلة الفرنك الالمانية قاده حقده المتأصل الى ان يأمر صحبته بان يحولوا -مهما كانت الظروف- دون لقائه بأناس يتحدثون اللغة الفرنسية، حتى ولو كانوا من العلماء او المصلحين. وينحى المؤرخون المعاصرون باللوم الشديد هذا النبيل غير النبيل على عنصريته المستنكرة، ويقال ان عقاب الله قد وقع على هذا الفاسق بسبب موقفه هذا.

ولكن بعد اربعة قرون (وبالتحديد في عهد فريدريك بربروسا) تغير كل ذلك. وقد لخص المفكر جون اوف سالزبوري (مؤلف كتاب البوليكراتيكوس عن فن السياسة) حوالي عام ١١٧٠ استياء معاصريه من الالمان كما يلي: "من الذي نصب الالمان حكاما على الامم؟" ان استئثار الالمان برتبة الامبراطورية اثارت حسدا بين الاخرين، وعزز هذا الغيظ والحسد عجرفة الامراء والملوك الالمان.

وتفاقم العداء بين شعوب غرب اوروبا اثناء الحروب الصليبية. وذلك ان النفور البديهي من الاخرين اشتد بسبب قربهم بعضهم من البعض في الجيوش الصليبية، ولكن في الوقت نفسه كبت هذا الشعور الطبيعي تحت التضامن المسيحي والنضال المقدس ضد العدو غير المؤمن. وان جو الاسلحة اللامعة والسباق الفروسي عمق شعور العداوة هذا بين الالمان والفرنسيين والانجليز والايطاليين في الارض

المقدسة. وهذه النزاعات لم تخف على البيزنطيين والمسلمين المتشمتين. وعلى كل حال فان مثل هذه الاشياء لم تكن اقل بروزا منها في جانب المسلمين. وكما تعرفون كثرت التحالفات بين احزاب مسلمة ومسيحية ضد اعدائهم المشتركين المسلمين والمسيحين قبل عهد نور الدين بن زنكي، وان سوء الحال هذا عجل في احياء روح الجهاد على الجانب المسلم وجعل المؤمنين في الغرب يتبرمون من الحملات الصليبية.

وانتشرت الاوصاف السلبية للاجناس الاخرى في عصر الحروب الصليبية. فمنذ هروب الملك الانجليزي ريتشارد (قلب الاسد) من ساحة القتال تحت اسوار عكا، شاع الحديث عن خيانة الانجليز Perfidia Anglica. وانذاك نشأت العبارة المتداولة عن عجرفة الفرنسيين Superbis Franciae. وانذاك ايضا، تحدث الناس عن جبن الايطاليين، ولم يكن هذا الحكم نتيجة ظروف او ابتكار من الحربين العالميتين. كما ان الالمان حظوا بأوصاف جارحة من قبل شعوب اخرى: فهم صعاب المراس، فيهم بلاهة، ولغتهم علجية، وان كانت شجاعتهم مثار الاعجاب والتقريظ.

ولكن نفور الاوروبيين الغربيين المتسم بالعنف كان موجها الى شعوب شمال اوروبا وشرقها المتوحشة، على الرغم من اعتناقهم المسيحية. فلم يكن المؤمن (غربي نهر الالبه) مستعدا باسم المسيح والصليب ان يعترف لهؤلاء المعمدين بالمساواة. لقد عمدوا الى تسميتهم شبه العلوج Paene Barbari. وكانت تنسب اليهم اقبح الجرائم مثل اغتصاب النساء وانتهاك الكنائس في صورة نمطية مكررة.

وقد عرف عن احد الاشراف في عهد شارل الاكبر انه جعل بعض العبيد في صقلية يعتنقون المسيحية، ويأكلون من مائدته ويشربون من كوبه الذهبي بينما كان سيدهم الوثني ينتظر خلف الباب في البرد، ان هذا الامر ما هو الا استثناء ملفت للنظر.

وفي الاحوال العادية، كان اهل صقلية بالتحديد، من ضحايا عجرفة

الالمان العنصرية. وهناك امثال عديدة لهذه الكراهية. ويخجلنا حتى الان ما يروى من العصور الوسطى الاولى، بان رجلا ضريرا من اهل صقلية لم يتجرأ على ان يسأل القديس هايزش في مزاره بميرزيبورج Mersrburg ان يشفيه "لان هايزش هذا، كان المانيا، ولم يقدم أية نعمة او حسنة لي ولا لمواطني".

في العالم الاسلامي، كانت واردة مثل هذه المنافسات والتحيزات الاثنية والاحكام المسبقة، ولكنها بالطبع لم تبرز بشكل واضح. بعض هذه الامور كانت مثلا بين العرب والاتراك، ويجب الحرص عند اقتباس هذه الامثلة بعناء وجهد من المصادر التاريخية، على حين ان المصادر اللاتينية تتحدث بصراحة عن التضاد اللاتيني والبيزنطي مثلا.

ان الاسلام لم يعرف نوايا عنصرية مثلا للطلبة القادمين من خراسان او من الاندلس في مدارس القاهرة او دمشق. ونستطيع ان نقول عموما ان مفهوم الامة كان وبقي اكثر تجريدا من مفهوم Natio في الغرب اللاتيني.

وهذه القائمة يمكن ان تطول. ما هو اساس هذا الفرق؟ لماذا تظهر الاختلافات الاثنية في الغرب بشكل اوضح منه في العالم الاسلامي؟ اجابة جزئية على الاقل، ان المسلمين في العصور الوسطى كانوا اكثر حركة من سكان اوروبا الغربية. ولهذه الحركة النشطة اسباب دينية واجتماعية فضلا عن الاسباب المبنية على وحدة العالم الاسلامي والعربي السياسي والثقافي المندمج طبعا.

فلنبدأ بالدين. ان احد اركان الدين الاسلامي فريضة الحج. وذلك يستدعي السفر مسافات بعيدة وتحمل الاخطار وتصبح ايضا واجبا على المؤمن المكلف. وأصبحت مكة المركز الحي للعالم الاسلامي. ان للحج اثرا في ائتلاف المؤمنين وتضامنهم. عن طريق الحج يفتخر المسلم حتى اليوم بانتمائه القوي الى الامة المحمدية التي تتجاوز الفروق الثانوية مثل الجنس والعرق. ان الحجاج يعيدون فكرة احياء الدين الاسلامي وقواعده الى بلادهم. وان اهدافا مماثلة لم تعرفها

المسيحية رغم جاذبية مدينة روما، كرسي البابا ومشهد القديس بطرس، او مزارات شعبية مثل سانتياغو دي كومبوستيلا في شمال غرب اسبانيا.

وبالاضافة الى ذلك، هناك فريضة طلب العلم ولو في الصين على كل مسلم، وليس فقط على جماعة رجال الدين المبتعدين عن المؤمنين. وهذا سبب اخر لهذه الحركية العجيبة في الاسلام. وبعبارة اخرى: سفر من سمرقند الى مراكش او صنعاء الى تبريز في القرن الثاني عشر كان شيئا يوميا وعاديا. ما ابعد الفرق بينه وبين الغرب. سفر من كراكوفيا في بولاندا الى البرتغال او من اكتلندا الى المجر كان حدثا غير عادي للغاية. اوروبا الغربية كانت تنقصها بؤرة مركزية مماثلة لمكة. ولهذا ايضا تنقصها القوة المثيرة للرحيل عن الوطن المألوف الى الغربة.

والان، ان الحنين الى الاوطان، الذي عرضت له في بداية المحاضرة، يبدو شيئا مفهوما. ان المسلم لم يكن ساكنا بل تحرك بكل سهولة من مكان الى اخر. والتضامن الاسلامي والشريعة، مكنت الرحالة في العصر الوسيط، من ان يشعروا بأنهم في وطنهم حتى في المناطق النائية جدا. ولم يحتج المسلم المغترب الى نيابات مواطنيه كما عرفها الغرب. وهذا فرق خطير بين الاثنين.

وأضافة الى الدين اريد ان اذكر عاملا ثانيا اجتماعيا للتحرك الملفت للنظر في العالم الاسلامي. وهو بالطبع نمط الحياة لدى جزء كبير من السكان المسلمين، وهذا العامل هو البداوة. هذه الظاهرة لم يعد يعرفها الغرب في صدر العصور الوسطى. فان ذكريات هجمات المجر البدويين على وسط اوروبا اصبحت باهتة من زمان طويل.

كانت الحال مختلفة عنها في الشرق. فلنتذكر: الامة (الـ Natio) ثلاث مكونات: اولا - الاصل، ثانيا - اللغة، ثالثا - الارض.

هذا المثلث المتساوي الاضلاع غير موجود عند البدو المسلمين الذين ينقصهم عنصر الارض المحددة والثابته. وعوضا عن هذا يتعزز عندهم عنصر النسب المشترك، وفي حال العرب القدماء كذلك عنصر اللغة

المشتركة. النسب الى النبي او الى قريش كان طبعا اعرق الانساب في كل انحاء العالم الاسلامي. لقد سمعنا فيما سبق عن جماعات غير عربية ادعت نسبها الى قريش.

وعند الترك والمغول وشعوب صغيرة اخرى، يلعب النسب دورا اكبر منه عند العرب. ان الانتماء الى بيت جنكيزخان بقي الشرف الاعلى على الاطلاق لعدة قرون لدى شعوب اسيا الوسطى البدوية. لقد تراجعت اللغة خلف هذه الصفة عندهم. وهان الفرق بين القائد الذي يتحدث المغولية، والقائد الذي يتحدث بلهجة تركية عند بدو تركستان في العصور الوسطى المتأخرة.

البداوة التي تعني كما هو معلوم التخلي عن اقليم محدد، كانت حتى هذا القرن، الصفة المميزة لشعوب معينة مثل التركمان والقوزاق. وفي ايران فان اهل البر الاتراك واجهوا اهل المدن الفرس بتمييز عنيف.

وقوة مقاومة الحياة البدوية في جميع الاقاليم شيء يستحق الملاحظة. ان الغزو المغولي في القرن الثالث عشر كان له وزن خاص. في ذلك الزمان، ومن خلال هذا الغزو تعرقل تمدن الشرق الاوسط بشقه الشرقي.

احدى نتائج هذه الحركية وما يرافقها من عدم التأصل في اقليم معين لجزء كبير من سكان الشرق الاوسط هي الاختلاط الجنسي والعنصري. الترك والعرب، البدو والحضر، وكلهم مرتبطون بالاسلام، عاشوا في منطقة ضيقة في جوار بعضهم. الاحتكاك بالاخرين وبالذين يتحدثون لغة مختلفة ويعيشون بطريقة اخرى اصبح شيئا طبيعيا ويوميا غير غريب كما هو في الغرب اللاتيني. المرء اعتاد على الغرباء وتعلم مسايرتهم.

بالطبع، ان هذه المجاورة للغرباء كما نلاحظ في العالم الاسلامي في العصور الوسطى نمت العدوان والبغض العنصري المحسوس، وهذا بخاصة عندما يكون هؤلاء الغرباء قابضين على زمام الحكم.

على ان الغرب لم يعرف تعايش الشعوب ولذلك فانه لم يعرف

مثل هذا العداء الا من بعد على الاقل قبل الحملات الصليبية لانهم فقدوا المعرفة الحية للاخرين.

نأتي الان الى ختام حديثي:

ان حركة القومية الحديثة، في الغرب (وبعد نهاية القرن التاسع عشر) كذلك في الشرق الاسلامي، اثارت فكرة الاستمرارية التاريخية والرسالة الخاصة للشعوب. ولكن هذا مكسب مزدوج.

فمن ناحية، ينمي هذا النمط من التفكير، البحث عن اسس الامم الحديثة في العصور الوسيطة، وهذا ميدان يحتاج الى دراسات شاملة وعميقة، وبالاخص في مجال التاريخ الاسلامي. واود هنا ان اذكر مرة اخرى بضرورة القيام بدراسات اصطلاحية تاريخية متقنة.

ومن ناحية اخرى فانه يجب علينا ان لا ننسى من جراء بحوثنا المتواضعة عن اثار الاحاسيس بالمقارنة بشعور التضامن الديني الذي ساد الشرق الاسلامي والغرب المسيحي طيلة العصر الوسيط. لقد كان المرء مواطنا في النظام الديني وعضوا في جماعة المؤمنين.

واحياء مثل هذا الشعور بالتضامن الديني، ليس اقل جدارة من البحث الناجح عن بدايات التفكير القومي -الذي يعني كذلك العلماني- في العصور الوسطى.

د. اولريش هارمان

PASSIA